مريم الكثير

زهرة الأقحوان

قصة قصيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي منحنا نعمة القلم لنخط به حروف الحكايات، ووهبنا العقل لنروي بها فصول الحياة. والصلاة والسلام على خير خلقه، محمد بن عبد الله ﷺ، الذي علّمنا كيف نسير على درب الحق والنور. هنا تبدأ قصتي، حكاية نسجتها الأيام، أحكيها لكم كما عاشها قلبي وعانقتها روحي.

زهرة الاقحوان

تأليف: مريم الكصير

البريد الالكتروني: lagsyermeryeme@gmail.com

اهداء

إلى روح جدي الحبيب:

إلى من علمني بقلبه قبل كلماته، ومن زرع فينا القيم التي ستظل نبراسًا يضيء حياتنا.

إلى من كان حضوره دفئًا وغيابه ألمًا لا يندمل، أسأل الله أن يجعل مثواه الجنة، وأن يظل عبير ذكراه حاضرًا في قلوبنا، يدفعنا دومًا نحو الخير والوفاء.

هذه الكلمات مهداة إليك، يا من ستبقى حيًا في دعائنا وذكرياتنا مهما غبت عن أعيننا.

مقدمة

مرحبا بك!

تقدم ولا تخشى شيئا، ليس هنا ما يدعو للخوف، انت الان في حقول فسيحة من زهور الاقحوان لكي تطلق العنان لروحك، فلتلتقط زهرتك التي ستنادي باسمك، تربع في جلستك وانت مغمض عينيك.

انصت بتمعن لما ستخبرك به، لانها تحمل في جعبتها قصصا من الذين مروا قبلك من هنا، حملوا ازهارهم وانصتوا وكذلك الازهار تنصت لهم وتحمل عنهم همهم وعناء مضيهم في دروب الحياة، فاختيار الحياة امر صعب كما تعرف...،

انصت جيدا الان، فإن الاقحوان يحكي لك عن فتاة مرت من هذه الارض مرة في الزمن, وهي ليست الا فتاتا احبت وبشدة هذه الزهرة كحبها للحياة.

(1)

أمنية تحت شجرة الزيتون

فصل الخريف، فصل تتساقط فيه أوراق الاشجار، تتلبد السماء بالغيوم الداكنة، وتلين حرارة الشمس، فتغدو بعد أن كانت الشخصية المحورية في فصل الصيف سوى ضيفة شرف. يقال عن الخريف فصل النهايات، لكنه في الحقيقة هو تجسيد واقعي للحياة، فما بعد الفشل يأتي النجاح، وما بعد العسر يأتي اليسر، وما يلي النهاية الا بداية جديدة، فما إن يعلن هذا الفصل تساقط ذكريات خلت حتى يبدأ في صناعة اخرى.

لكن الشجرة التي باركها الله في ذكره تأبى التخلي عن اوراقها، كأنها تخجل من أن تظهر مفاتنها، كفتاة حسناء تزينت بالعفاف، انها شجرة الزيتون، شجرة السلام. والقرية كذلك كانت تنعم في السلام، كيف لا، وقد ترعرعت في وسط بساتين وحقول كثيفة من شجر الزيتون الضاربة في عبق التاريخ، إن سألتها ستحكي لك قصصا فيها العجب العجاب، وكعادة اهل القرية فإن حصاد غلة الزيتون يبدأ من شهر اكتوبر الى نهاية شهر ديسمبر من كل سنة.

كانت عائلة الحاج نعمان العائلة المالكة لمعصرة الزيتون التي تتوسط الدوار، لذا اكتسبت شهرة واسعة حتى في القرى المجاورة، لم تكتسب هذه العائلة السمعة فقط لهذا السبب، فقد عرف الحاج نعمان منذ شبابه بفعل الخير وكرم ضيافة الغريب قبل القريب، وعرف بعلمه الوفير في الدين الاسلامي، فطلاب العلم يأتون من المدن والقرى لكي ينهلوا من بحر علمه وحكمته.

كان يعيش في ضيعته مع زوجته لالة خدوج التي تحترمها وتوقرها كل النساء هناك، فهي كريمة عليهن، ولا ترد من تحتاجها، وكذا كان يعيش معهم حفيدهم الصغير ادهم الذي يضفي على وحشة الضيعة وهدوءها جوا من المرح والبهجة.

كان ادهم يرافق جده، يطيعه ويتشرب منه العلم الشرعي رغم سنه الصغير، فقد ختم القران وهو في سن السابعة، لازال سكان الدوار يذكرون جيدا الحفل الكبير الذي أقامه الحاج نعمان للاحتفاء بحفيده الحامل لكتاب الله.

ذات يوم وكعادته ذهب ادهم يتجول بين الحقول المحيطة بقريته الصغيرة، يبحث عن شيء يخفف عنه ضجيج افكاره. هناك، وسط حقل السنابل التي تم حصادها في فصل الصيف الذي مضى، تحت شجرة زيتون لمح فتاتا في مثل سنه الاثني عشر ربيعا تجلس تحت ظلها، تمسك بزهرة كأنها زهرة

الاقحوان، وتقطف بتلاتها برقة وتردد بكلمات لا يكاد يسمعها، لم يتمالك نفسه إلى أن وجد فضوله قد توقف به تحت ظل نفس الشجرة.

سألها متعجبا:" ماذا تفعلين بهذه الزهرة المسكينة؟"

رفعت رأسها إليه ترمقه بنفس النظرة، نظرة التعجب والفضول، أجابته:" لدي سؤال...، وعليها أن تجيبني عليه، فهي تعرف اكثر مما نعرف نحن البشر"

لكنه انتبه لشيء ما اكثر اهمية مما تفعله الفتاة بالزهرة، قال لها وهو يفتح فاهه على آخره:" زهرة الاقحوان، زهور الاقحوان لا تنمو الا في فصل الربيع، من أين حصلت على هذه؟"

قالت له:" لقد حصلت عليها من بستان في آخر قريتنا حيث السنابل الخضراء، اتريد أن ادلك عليه"

تفاجأ من كلامها ثم قال:" سنابل خضراء؟ هل تمزحين...؟ وفي فصل الخريف؟"

قالت:" ومالك تذكر الخريف كثيرا؟ نعم لقد وجدت حقلا من السنابل الخضراء، حقل تتوسطه شجرة زيتون واحدة، وبين السنابل تنمو زهور الاقحوان هاته"

_" كيف سأصدقك؟"

_" هيا معي، وسترى بنفسك"

قال لها وهو يحاول أن يخفي خوفه:" أولا ماذا كنتي تفعلين بزهرة الاقحوان تلك؟"

_" احاول أن اعرف إن كان أبي يحبني؟"

_"أبي...؟"

_" لقد صرخ في وجهي صباح هذا اليوم، لذا سألت زهرتي وأخبرتني آخر بتلة فيها أنه يحبني حقا، أتريد أن تجرب؟ هيا هيا لنقطف زهورا اخرى"

أخدته من يده وجرت به نحو حقل السنابل الخضراء كما زعمت، تبعها وهو يتساءل بين مصدق ومكذب أهناك حقا سنابل تخضر في عز الخريف؟ جالت في خلده افكار كثيرة، لكنه تذكر أنه لم يرى هذه الفتاة من قبل، ولم يسألها حتى على اسمها.

وبينما هما يهرولان نحو وجهتهما، قال لها:" ما اسمك يا فتاة؟"

قالت وهي تلتقط انفاسها بعدما تعبت من الركض:" اسمي ميليس"

قال لها وهو ينظر إليها:" لماذا توقفنا يا ميليس؟"

ثم أشارت باصبعها السبابة نحو حقل السنابل:" لقد وصلنا..."

لم يصدق ما تراه عيناه أهو في حلم أم ماذا؟ لقد كانت الفتاة على حق، فما وصفته بالحرف يتجلى أمامه عين اليقين.

قاطعت شروده قائلة:" سأرتاح هنا قليلا اذهب واقطف زهرتك، لكن لا تقترب من شجرة الزيتون تلك، فقد نبهتني زهرتي من ذلك"

_" ماذا...؟ ما بها شجرة الزيتون...؟"

_" لا اعلم، لم تخبرني زهرتي، هيا اذهب..."

_" تعالي معي..."

_" هل أنت خائف؟ هيا هيا "

_" لا لست خائفا، لكنك تفهمين لغة الاقحوان"

دخل الاثنان وسط حقل السنابل لكي يقطف زهرته، لكنه لاحظ أنها لا تقطف زهرة أيضا، تبادر إلى ذهنه الشك، من أين أتت هذه الفتاة؟ من تكون؟ ومن يكون ابوها الذي جعلها تقطف زهرة لكي تتأكد من حبه لها؟ حتى اسمها غريب عما تعود عليه، ميليس ما معنى هذا الاسم؟

اجابه صوت لم يعرف مصدره:" يعني النحلة الطنانة، وهي كذلك مثل النحلة"

اختضت جوارحه وزاد خوفه، لكنه عندما التفت إليها لم يجدها تنظر إليه ولا هي مهتمة به لتعرف ما يجول في خاطره، فقد كانت تتأمل في شجرة الزيتون العملاقة، فمن عساه قد علم سؤاله فأجابه؟

قال الصوت:" أنا زهرتك، انا من أكلمك، فمن تخطو قدماه هذا الحقل يستطيع أن يسمع همس زهرته"

_" وهل أنت زهرتي؟"

_" نعم أنا..."

_" اذن أين أنت من بين كل هذه الزهور؟"

_" أنا أمام ناظريك مباشرة"

لمسها وقال:" هذه أنت، زهرتي"

_" نعم أنا..."

_" ماذا علي أن أفعل الان؟"

لكن زهرته لم تجبه هذه المرة، استدار ليرى ميليس قد اقتربت من شجرة الزيتون، هرع إليها مسرعا ليذكرها بأن زهرتها نهتها عن الاقتراب.

أجابته:" لقد تكلمت معي...، أخبرتني أن أتمنى أمنية"

_" هل تمنيت...؟"

_" سأذهب لابد أن أبي قلق علي"

رحلت دون أن تقول امنيتها، حتى دون أن تسأله هل وجد زهرته أم لا.

قالت شجرة الزيتون "لماذا اقترت مني أيها الصبي؟ لم آمرك بذلك"

ماذا سيفعل الان؟ لقد اقترب من الشجرة دون أن ينتبه، ماذا سيحصل له؟

قالت الشجرة:" لم تقطف زهرتك..."

اجابها والخوف يملأ وجدانه:" لماذا سأقطفها ليس لدي ما اسألها؟"

_" لكنها زهرتك، ليس لاحد غيرك الحق في قطفها"

_" هل أقطفها الان...؟"

_" لكنك اقتربت مني...، زهرتك الان قد ذبلت"

_" ماذا سأفعل الان؟"

_" تمنى أمنية"

_" ليس لدي أي أمنية لكي أتمناها"

فهزت الشجرة جذورها في غضب قائلة:" تمنى أمنية، وإلا لن تعود لأهلك"

قال ضاحكا يخفي بين ثنايا وجهه الباسم رعبا رهيبا:" انت سخية كثيرا، فلماذا تحذر الزهور من الاقتراب منك؟ إنه لامر غريب"

قالت الشجرة وهي تزمجر:" تمنى أمنية"

تغلب عليه الخوف فقال امنيته التي لطالما تمناها:" اريد أن أري أمي وأبي"

هزت شجرة الزيتون اغصانها وحركت جذورها ، وتزلزلت الارض من تحت قدميه، لم يكن يعرف ماذا يجري ؟ ولم يكن يعرف ماذا ستفعل به هذه الشجرة الملعونة ؟إلى أي مكان تسحبه وإلى أي زمان؟ وهو في حيرة من أمره لا يعلم كيف يخلص نفسه؟ فجأة خطفته تلك الجذور لتذهب به إلى مصير يجهله.

(2)

زهرة لم تجب

بعدما تشابكت جذور شجرة الزيتون حول قدميه، وحتمت عليه الغوص الى الاعماق، رغم أنه كان يقاومها بكل ما أوتي من قوة، لكنها كانت اقوى من عزيمته على التحرر، لم يكن يعرف عندها أن الشجرة تسعى لتحقيق أمنيته، ولم يكن يعلم أنه لا يغوص إلا في اعماق ذاكرته، الذاكرة التي تعبق بكثيير من اللحظات المنسية التي عاشها مع والديه وهو رضيع، لا يتذكرهم، لكنه عاش معهم إلى أن بلغ سن الثالثة من عمره.

كأنه حلم لا يعلم كيف سيستيقظ منه؟ فيما ورطته فتاة الاقحوان؟ ولماذا سمحت لها الشجرة بالذهاب بعدما تمنت امنيتها؟. كان يتساءل عنها عوض أن يتساءل أين هو؟ وأخيرا انتبه إلى المكان الذي أخذته إليه شجرة الزيتون، أين هو حقا؟ وما هو الزمان الان؟ ومنزل من هذا؟ كل شيئ غريب هنا، حاول أن يستكشف ارجاء البيت الذي دخل إليه دون استئذان اصحابه، كان بسيطا لكن له سحرا خاصا به، في غرفة المعيشة ارائك قديمة ذات الوان خافتة، مزينة بصور عائلية ويتوسطها تلفزيون قديم، وتفوح من المطبخ رائحة الطعام الشهي، الغرف كانت هادئة بأثاث خشبي تقليدي، مع أسرة مزينة بملاءات قديمة،كل زاوية من هذا المنزل تحمل لمسة من الذكريات.

قال في نفسه:" كأنني أعرف هذا المكان؟"

اجابه صوت تعرف إليه حديثا:" نعم...، أنت تعرف هذا المكان جيدا"

قال في ترقب:" هل انت اقحوانتي التي لم تجيني؟"

_" نعم أنا..."

أجابها وهو غاضب منها:" لماذا لم تجيبيني؟"

_" عليك أن تجد السؤال الذي احمل اجابته حقا"

_" ماهو هذا السؤال؟"

سألها مره أخرى لكن اقحوانته لم تجبه، غضب كثيرا، لأنه تساءل:" لماذا وجدت فتاة الاقحوان جوابها؟"

اقحوانة:" لأنها قطفت زهرتها، وسألتها السؤال الذي عليها أن تسأله، لكنك أنت تكثر من طرح الاسئلة ولا تأسالني ما عليك حقا أن تسأل؟"

_" أين أنت الان؟"

_" ها نحن ذا، تسألني أين أنا؟ ولا تعلم حتى أين أنت؟"

_" أين أنا اذن؟"

لم تجبه اقحوانته عن سؤاله مرة اخرى.

استمر في اكتشاف عالمه الجديد، إلى أن سمع وقع الخطوات وصوت مفاتيح تخرج من الجيب لتفتح الباب، حاول أن يجد مكانا ليختبئ فيه لكن الوقت لم يمهله، فقد دلف رجل طريل عريض المنكبين ذو لحية سوداء، تتبعه من خلفه امرأة رشيقة، لازالت في ريعان شبابها، لكنها تشبه شخصا ما، كأنه رآها من قبل، فكر ثم تذكر، قال:" إنها تشبه جدتي، لالة خدوج" انتبه لصوته فصمت، وانتبه لجسده المكشوف فحاول الاختباء مرة اخرى بعد أن عاد من شروده، لكن الرجل مر من أمامه دون أن يبدي أية ردة فعل، كأنه لا يراه، "كيف ذلك، لماذا أراهم وهم لا يروني، هل أنا في حلم؟".

اجابته اقحوانة:" أنت تمنيت، وتحققت أمنيتك"

_" كيف...؟

_" تمنيت أن تراهم، لا أن يروك"

لاحظ أدهم أن المرأة التي تشبه جدته تحمل شيئا بين ذراعيها، كأنه صغير حديث ولادة، كان ذلك الكائن الصغير ملفوفا في ملاءة بيضاء ناعمة، لكن الغريب في الامر أنه كان يسمع نبضات قلب الصغير التي كانت متزامنة مع نبضه، قال في نفسه:" هل هذا أنا؟"

اجابته اقحوانة:" نعم إنه أنت"

جحظت عيناه، وامتلأت بالدموع، قال متسائلا:" هل هذه أمي؟"

اقحوانة:" نعم إنها هي ، ندى امك"

_" الهذا تشبه جدتي؟"

فلم تجبه اقحوانته لسبب واحد هذه المرة، فالامر جلي، فهي بنت امها لالة خدوج جثى على ركبيتيه غير مصدق أنه يقف أما أمه، يراها ويتأمل تقاسيم وجهها، عله يحفظها لكي لا ينساها مرة اخرى.

جلس والداه على اريكة في غرفة المعيشة فجلس بجانبهم يراقبهما عن كثب، ويسمع صوتهما الذي لطالما تمنى أن يسمعه، كان هو في ذلك الزمان لازال رضيعا، كانا يلاعبانه، يضحكان إذا ضحك، ويحاولان تهدئته إذا بكى، كان ينظر إلى حنان أبيه على أمه التي قد نامت، لابد أنها كانت منهكة كثيرا، كان يرى كيف حمله ابوه الى حضنه، كيف كان حنونا رغم قصاوة ملامحه، لم تسعفه الكلمات هذه المرة، كان يشاهد فقط.

فجأة تغير المشهد أمامه كأنه يقلب صفحات ذاكرته المنسية، اصبح يرى صغيرا تعلم المشي لتوه، وفرحة ابويه العارمة، وضحكات واصوات تشجيع لكي يستمر الصغير ولا ييأس، في مشهد غيره كان قد قال أمي كأول كلمة له مما جعل أباه يشعر بالغيرة، ومشهد اخر كان يرفض فيه الطعام الذي قدمته له والدته، وفي صفحة اخرى كان ابواه يهرعان به إلى المستشفى خوفا عليه من المرض.

انتقل الزمان بأدهم إلى نقطة البداية عندما حط الرحال هنا في الماضي، ثم قال:" أهذا كل شيء يا زهرة الاقحوان؟"

لم يسمع أي إجابة منها، قال مردفا:" إذا كان هذا كل شيء؟ كيف أعود إلى واقعي؟"

اجابته زهرته:" حان وقت السؤال الذي لابد أن اجيب عنه"

_" بعد أن علمت أين أنا، فأين أنت؟"

_" ليس هذا هو السؤال لكنني في فناء هذا المنزل أنا وإخوتي، ستجدني أمام ناظريك تماما"

ذهب مسرعا يبحث عن زهرته مرة ثانية، لكن الان لن يعيد نفس الخطأ وسيقطف زهرته، وهذا ما كان وجدها وقطفها، وسألها أيضا:" كيف مات والداي؟"

_" إنه السؤال الذي كان عليك أن تسأل"

_" اذن لديك الجواب؟"

_" الجواب لديك أنت، تعلمه جيدا"

_" قال لي جدي أنهما توفيا في حادث"

_" إن كنت صدقته لما سألت"

_" أنا اصدقه حقا، ولا أعلم لماذا سألت اصلا؟"

_" والداك يا صبي لازالا يصارعان من اجل العودة"

_" كيف ذلك؟ لازالا أحياء؟"

علم من زهرة أن والديه لم يدفنا، وليس لهما قبر، بل هما في عداد المفقودين، فلم يجدوا في السيارة المحطمة الا أدهم، الصغير ذو الثلاث سنوات، رأى أدهم نفسه وهو صغير يسافر مع اهله ذات يوم متجهين إلى القرية عند جده الحاج نعمان، انزلقت اطارات السيارة على غفله لكي تتدحرج من اعلى الجرف، حاولت أمه حمايته بكل ما أوتيت من قوة.

كان الوقت ليلا، عندما استفاق السيد يعقوب من غيبوبته، تفقد زوجته وابنه، كان خائفا جدا لكنه حمد الله بعد أن سمع بكاء صغيره مما جعل امه تستيقظ أيضا، ساعدها لتخرج من حطام السيارة، ونبهها من المنحدر الذي كان خلفهم، حاولت ندى تهدئة طفلها الذي غفى وغط في نوم عميق، طلب

منها زوجها ترك طفلها في زاوية آمنة ومساعدته في إجاد هاتف لكي يستطيع طلب النجدة، حاول كل منهما لكن رجلها انزلقت من المنحذر فامسكت بطرف من قميص زوجها ثم سقطا معا نحو الهاوية تاركين طفلهما وحيدا.

صرخ ادهم ذو الاثنا عشرة سنة، غير مصدق ما حصل لوالديه، وكأنه يريد أن ينقذهما، لقد ذرف دموعا كثيرة، وانهزم أمام حاله الذي لا يخوله لفعل إي شيء، لقد فات الاوان.

قالت اقحوانة:" لم يفت الاوان ابدا يا أدهم، لازال بإمكانك انقادهما"

قال بقلب منفطر:" كيف ذلك؟ كيف سأفعل ذلك؟ لقد مر وقت طويل"

اجابته:" افتح عينيك الباكيتين لترى"

فتح عينيه ليجد نفسه عند باب خشبي لمنزل في احدى القرى البعيدة، أين هو الان؟ وهل هذه تخيلات أم أنها الواقع؟، ماذا يوجد خلف هذا الباب؟.

قالت له زهرته:" اقرع الباب لتجد الجواب"

فقرع الباب باليد اليسرى، لأن يمناه كانت تحمل اقحوانة بعد أن قطفها من فناء منزلهم القديم، لتفتح نفس المرأة التي كانت تحمله وهو رضيع لكنها على ما يبدو تقدمت في السن ليس كثيرا لكنها ليست الشابة اليافعة التي رآها أول مرة، استغربت المرأة منه، فهي لا ترى سوى صبي يحمل اقحوانة.

سألته:" من أنت؟"

تعجب وقال:" هل تستطيعين رؤيتي؟"

ضحكت من سؤاله ثم أردفت:" نعم اراك، وارى اقحوانتك ايضا"

_" أنا ادهم..."

_" أدهم أين والداك؟"

لم يستطع الاجابة على سؤالها، كيف سيجيب وهو يعلم الان أنها أمه.

قالت في حنو:" ما بك يا صغير؟ هل أنت تائه؟"

أجابها:" أمي..."

قالت:" ما بها؟ من هي أمك؟"

لم يجبها لأنه لا يعرف ما يقول.

جاء من ورائها السيد يعقوب، ليرى لماذا تأخرت زوجته، فرأى أدهم يحمل اقحوانته.

قال السيد يعقوب:" من هذا يا نجمة؟"

قال أدهم في تعجب:" نجمة...؟ إنها ندى وليست نجمة"

قال السيد يعقوب:" هل تعرفها؟"

قال أدهم:" إنها أمي..."

ضحكت ندى أو نجمة، وتبعها السيد يعقوب، ولايزال أدهم يتأمل بعينيه المتلألأتين في تقاسيمهما التي يتمنى ألا ينساها مجددا.

همست اقحوانة في اذن ادهم:" قدمني لندى، اجعلها تمسك بي"

فعل ادهم ما أمرته به اقحوانة، لتمر لحظة من اللحظات عاشت في ذكريات ندى قبل أن تفقد ذاكرتها، تذكرت عندما أعطاها ادهم وهو ذو ثلاث سنوات قبل أن يخرجوا في تلك الرحلة المشؤومة زهرة قطفها من الحديقة التي كانت تعتني بها.

استقامت في وقفتها ثم قالت وكأنها تفكر:" أدهم...، أدهم...، أدهم"، فما فتئت حتى عانقته وهي تبكي بحرقة، كانت تسع سنوات مضت تعيش في الفراغ، حلقة كبيرة مفقودة من حياتها، فهي لا تتذكر إلا ما عاشته بعد الحادث.

توجهت بنظرها نحو زوجها الذي لا يختلف عنها كثيرا، ودموعها شلال على وجنتيها، قالت له:" يعقوب...، نعم أنت يعقوب، اسمك يعقوب، هذا ابننا أدهم، فلذة كبدنا"

كان كلامها يحمل صدقا خالصا، وصل معناه لقلب يعقوب المتصلب، رغم أنه لا يتذكر شيئا، لكنه صدقها وصدق أن الذي يقف أمامه هو ابنه، وصدق أيضا أنه يعقوب بعدما كانت تناديه محمد، انحنى على ركبتيه ينظر إلى الصبي في استغراب، فهو لايزال يعيش في الفراغ.

همست اقحوانة في اذن أدهم للمرة الاخيرة:" أنت سألت، وأنا أجبت، والان انتهت مهمتي، وعليك أن تعود لعالمك"

بعد همستها الاخيرة، كانت أمنية أدهم أن يبقى معهم، تمنى وتمنى، لكنها كانت أمنية واحدة" أريد أن أرى أمي وأبي"

بعد مدة ليست بالبعيدة استيقظ ادهم، ليجد نفسه في سريره المعتاد، تجلس بجانبه جدته لالة خدوج التي كانت تنتظره في ترقب ليستيقظ.

قال ادهم في انهيار:" لا يمكن أن يكون حلما، لا يمكن..."

(3)

فتاة الاقحوان

تفاجأت لالة خدوج باستيقاظ أدهم، لكن ما فاجأها حقا هو أدهم الذي كان يصرخ ولا يقول سوى:" لا يمكن، لا يمكن"، استنجدت بزوجها ليدخل نعمان ويصاحبه السيد يعقوب يهرولان إليه، بدت علامات التعجب في عيني أدهم، هل عادوا؟

فأجابته زهرة:" من يتمنى رؤية من يحب، فهو في قرارة نفسه يتمنى أن يبقى مع من يحب"

قال أدهم:" لقد كانت الهمسة الاخيرة، لماذا تجيبيني إلى الان؟"

اقحوانة:" لأنك لم تقطف بتلاتي، ولم ترمني، فأنا لازلت بجانبك"

بدأ أدهم يبحث عن أقحوانته في ترقب، فوجدها على رف بجانب السرير، فرح كثيرا ، ولاحظ هذا كل الذين يحيطون به.

سأله جده:" هل أنت بخير يا بني؟"

_" نعم أنا بخير يا جدي..." امسك بيد جده بشدة وقال:" هل هذا أبي يعقوب؟"

_" لقد عادوا يا بني، لقد عادوا ...، لكننا وجدناك ذلك اليوم مغشيا عليك قرب شجرة الزيتون في بستان شيخ القرية، ماذا أصابك يا بني؟"

انهمرت دموع أدهم وهو يعانق أباه لأول مرة بعد تسع سنوات من الفراق، لكنه لم ينسى أن يسأل عن أمه، لا يراها معهم هنا، لكنها في غرفة من الغرف نائمة هناك، فقد تدهور حالها بعدما عادت إلى بيت أبيها، كأنها أعلنت استراحة من حرب دامت تسع سنوات من البحث عن الماضي، وانهارت قواها بعدما رأت ابنها الوحيد في حال غير الذي تمنت أن تراه عليه، ذهب إليها مهرولا فوجدها مسطحة على سريرها، نفس ملامحها التي رآها في ذاكرته، صرخ بصوت عال "أمي" وارتمى في حضنها الذي حرم منه سنينا، أفاقت رغم علتها وحضنت فلذة كبدها.

كانت فرحة أدهم بعودة والديه المفقودين فرحة لا تسعها أرض ولا سماء، أكان ما عاشه في الماضي القريب حلما أم حقيقة، لكنه تأكد من والديه أن ما حصل حقيقة، لكن هل لقاؤهم كان حلما حقا؟ لم يستطع أن يتلقى جوابا، لاحظ أنه لازال يحمل اقحوانة بيده اليمنى، فتذكر ميليس فتاة الاقحوان، وتذكر شجرة الزيتون العملاقة، عليه أن يشكرها لأنها حققت امنيته.

انفلت من حضن ابويه وهرول يحمل زهرته نحو حقل السنابل الخضراء، وصل هناك لكنه وجد حقلا

عاديا، حقلا كأي حقل في فصل الخريف ارضا جرذاء، لكنه وجد شجرة الزيتون.

تساءل كثيرا، وتكلم كثيرا ، لكن لا أحد يجيب، حتى اقحوانته ذبلت وتساقطت اوراقها، كاد أن يصدق بأن الاقحوان يزهر في فصل الخريف، لكنه تساءل عنها، عن ميليس فتاة الاقحوان، هي التي ستيجيبه فهي من ارشدته لحقل السنابل الخضراء.

انتظر الربيع، وازهرت السنابل، ولاحت من بينها زهور الاقحوان، وشجرة الزيتون الوحيدة، كأنها ملكة تربعت على عرشها، لكنه لم يسمع همسا، ولا زلزت الارض من تحته عندما اقترب من الشجرة، ولم يراها هي في أي مكان ، سأل عنها سكان القرية، لكنه لم يجد أحدا يعرفها، لم ينتظر الربيع فقط بل انتظرها هي اقحوانته.

مرت سنين وسنين، ولازال يحاول إيجادها لتجيب عن سؤاله، أكان حلما أم حقيقة؟ هل هي فتاة واسمها ميليس حقا أم أنها كانت خيالا فقط؟

وزادت السنين طولا لكنه لم يجد ضالته، واصبح ذو الاثني عشر، شابا عشرينيا، استقر في المدينة مع والديه الذان كلما رآهما كان ممتنا لشخص واحد، لزهرة ثم لشجرة، كان يزور ضيعة جده في العطل وعندما تتاح له الفرصة لأنه مزال لم ييأس، ولا زال يبحث عن فتاة الاقحوان.

فصل الخريف مجددا، يعني وقت زيارة القرية،كان لأدهم صديق، وهو صديق الارض، اختار أن يكون فلاحا، وأن يهتم بأراضيه التي ورثها من أبيه الراحل، كان صديق الارض هذا اسمه عبد السلام، كان كاتم السر الوحيد الذي يملكه أدهم.

ذهب أدهم ليقابل صديقه بعدما سلم على جده وقبل رأس جدته، فوجده كعادته يقلب تراب أرضه، فناداه:"يا صديق الارض، أنا هنا"

فهرول نحوه عبد السلام لكي يحضنه ، و قال بصوت خافت:" مرحبا يا فتاة الاقحوان"

قال أدهم بعد أن ابعد صديقه عنه:" هل تتنمر علي؟"

_"لا...، لا اتنمر عليك، لكنني أعلم لماذا تأتي كلما سمحت لك الفرصة إلى هذه القرية، لو لم تكن فتاة الاقحوان تشغل بالك، لما زرتنا ولا رأيناك"

_" إذا وجدتها يا صديق الارض سأشتري ذلك الحقل، سأتزوجها وسأستقر هنا في ضيعة جدي"

_" اتمنى أن تجدها لأتخلص من شكواك"

_" نعم يا صدي...ق الار...ض"

_" مابك تمتم؟..." التفت صاحبه يمنة ويسرى عله يجد سببا لشرود صاحبه، قال له وهو يحركه:" مابك يا أدهم؟ هل أصابك مس أم ماذا ؟"

لكنه هرول دون أن يجيب، كأنما طار عقله إلى اتجاه ما وهو يتبعه، صاح باسمه عبد السلام لكن ما كان يشغل أدهم ذهب بسمعه وبصيرته.

كان يقول في نفسه غير مصدق:" أهي حقا؟... ربما ليست هي" كان يتبع خطواتها الرقيقة وهو يتساءل:" أتذكرني؟"، لكنه كلما حاول الاقتراب منها ابتعدت، كان مصمما فقد انتظر طويلا، وتمنى كثيرا علها يوما تتجلى أمامه، فانتبه...، انتبه أنها تقوده مرة أخرى وفي فصل الخريف إلى حقل السنابل الخضراء، وهل هي خضراء هذه المرة أيضا؟

لازمها وهو من ورائها يترقب، لكنها توقفت عند الحقل الذي كان في وقت مضى مخضرا في فصل الخريف، فسمعها تقول:" أنا متأكدة أن هذا الحقل هو حقل السنابل الخضراء وزهور الاقحوان، لقد كان الصبي محقا لا سنابل خضراء في فصل الخريف"

فأجابها من خلفها:" بل كان مخطئا، فهنا حقا كانت سنابل خضراء في فصل الخريف"

تجمدت في مكانها، كأنها صعقت عندما سمعت صوتا يؤكد ما رأته ذات يوم، ثم أصبح المتكلم أمامها، فرفعت رأسها لترى أن الصبي أصبح شابا، وأنها كذلك لم تعد تلك الفتاة الصغيرة، التي لا فرق لديها لا بين خريف ولا ربيع.

قال لها مرة أخرى:" أنت فتاة الاقحوان؟ أنت التي سألت أقحوانتك فأجابتك؟ انت التي تمنت أمنية تحت شجرة الزيتون تلك؟"

قالت بصوت مرتجف:" هل أنت حقيقة أم خيال؟"

قال وابتسامه تعلو محياه:" أنا أدهم، حفيد الحاج نعمان، الذي يملك معصرة الزيتون"

قالت والصدمة بادية على تقاسيمها:" إذن أنت حقيقي؟ وما رأيته ذلك اليوم كان حقيقيا؟"

قال لها وهو يشيح بنظره إلى شجرة الزيتون:"أنا أيضا أسأل عما إذا كان ما عشته يومها حقيقة أم خيال"

قالت بخجل:" إذن أنت أدهم...، اسمك ادهم"

نظر اليها وقال:" نعم...، وأنت ميليس، أليس كذلك؟"

قالت:" نعم اسمي ميليس، وأبي هو السيد رشاد شيخ القبيلة، ومالك هذه الارض"

تعجب وقال:" لكنك اختفيت من يومها، ألا تعلمين كم بحثت عنك؟ أسأل الجميع ولا أحد يعلم من هي ميليس"

ضحكت:" اسمي بين افراد القبيلة فرحة، لأن ابي يلقبني بهذا الاسم، وأنا لا أعيش هنا، بل أتي لأزور أبي فقط، فأنا أعيش مع أمي في المدينة"

قال:" هكذا إذن...، لكنني تأكدت أنني لم أكن في حلم"

وبعد هذا الحديث سمعا همسا ينادي باسمها يقول:" أنا زهرتكما، اسألا وسأجيب"

فكان سؤال كل منهما في قرارة نفسه واحدا " هل تحبني؟"، "هل يحبني؟"، فأجابت الاقحوانة:" نعم" فاكتست الارض الجرذاء حلة الربيع، وتيقنا أن ما عاشاه قبل سنين مضت كان حقيقيا، زهور الاقحوان في فصل الخريف، والخريف هنا يعني بداية قصتهما وعليهم قطف زهرتهم معا.

سألها وهما يحملان اقحوانة:" ماذا كانت أمنيتك؟"

قالت له:" لقد تمنيت أن تمطر السماء، وتسقي الارض لكي تنمو أزهار الاقحوان، فأنا أكره فصل الخريف"

ضحك وقال:" لهذا سمحت لك الشجرة بالذهاب"

قالت له:" وأنت ماذا تمنيت؟"

أجابها:" تمنيت أن أرى فتاة الاحوان"

بعد مرور عام من هذا اللقاء استطاع أدهم أن يتزوج من حلم حياته وفتاته التي لطالما بحث عنها ميليس، وكان حقل السنابل الخضراء هدية من والدها لها، وكان لأدهم ما أراد في النهاية الحقل وفتاة الاقحوان.

تمت بحمد الله

مريم الكثيري

زهرة الأقحوان

قصة قصيرة

فعل ادهم ما أمرته به اقحوانة، لتمر لحظة من اللحظات عاشت في ذكريات ندى قبل أن تفقد ذاكرتها، تذكرت عندما أعطاها ادهم وهو ذو ثلاث سنوات قبل أن يخرجوا في تلك الرحلة المشؤومة زهرة قطفها من الحديقة التي كانت تعتني بها.

استقامت في وقفتها ثم قالت وكأنها تفكر:" أدهم...، أدهم...، أدهم"، فما فتئت حتى عانقته وهي تبكي بحرقة، كانت تسع سنوات مضت تعيش في الفراغ، حلقة كبيرة مفقودة من حيتها، فهي لا تتذكر إلا ما عاشته بعد الحادث.